ركب الحاج المغربي وأثره على الأوضاع الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي الأسواق أنموذجاً

د. دعاء عبد الرحمن علي

أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي

كلية الآداب جامعة حائل المملكة العربية السعودية.

الملخص:

الحج في الاسلام هو فرض عين وجبت تأديته على جميع المسلمين ومما أضفى أهمية وشهرة واسعة على هذه الفريضة الدينية في المغرب الإسلامي الإطار التنظيمي المتميز الذي كانت تتم فيه ، حيث اعتاد أهل المغرب الأقصى ومعهم عدد من حجاج شمال إفريقيا وبلاد السودان الغربي تأدية هذه الفريضة في موكب جماعي ظل يعرف إلى عهد قريب بركب الحاج المغربي والذي كان يشكل الإطار الأمثل والوسيلة الأنجح لتمكين أكبر عدد من أهل المغرب من أداء مناسك الحج ، وقد تميز ركب الحاج المغربي باحتوائه على مختلف الفعاليات والفئات الاجتماعية والدينية والسياسية من رجالات الدولة والأمراء والأعيان والعلماء والتجار.كما تميز بآثاره الاقتصادية الملموسة على البلدان التي يمر وبشكل خاص فيما يتعلق بالأسواق حيث تشهد اهتماما خاصا من قبل السلطات الحاكمة في تلك الفترة، كما تشهد زيادة في حركة البيع والشراء وتنشط المهن العاملة في السوق

الكلمات الدالة: ركب الحج المغربي – أهم السلع التجارية – الأسواق المؤقتة – العاملون بالأسواق– المحمل.

ABSTRACT:

Hajj in Islam is the duty and Todath obligatory for all Muslims and which gave importance and kudos to these religious obligatory in Islamic Maghreb outstanding

regulatory framework that was done in it, where he used the people of the Far Morocco, along with a number of the pilgrims of North Africa and the west of Sudan fulfill this duty in a mass procession under known until recently up Haj Moroccan who was a best framework and way the most successful to enable a greater number of the people of Morocco to perform Hajj, was marked rode Haj Moroccan features the various events of social, religious and political groups of statesmen and princes, dignitaries, scholars and merchants. as characterize tangible economic effects on countries that passes in particular with terms of markets, which is experiencing particular attention by the ruling authorities in the period, as evidenced by an increase in the buying and selling movement and active professionals working in the market
Key words: Moroccan rode pilgrimage - the most important commercial goods - temporary markets - workers at market.

تمهيد

كان لركب الحجيج أثاره الملموسة على الأسواق المصرية تمثلت في الاهتمام بعمارتها من ناحية ، وفي زخم الحركة والنشاط وازدحامها بأصناف البضائع من ناحية أخرى ، فقد مثل موسم الحج وقدوم الحجيج المغاربة إلى مصر ليلحق بهم ركب الحج المصري حدثا عظيما [1]فظهر اهتمام كبير به من قبل المماليك باعتباره من أهم الأحداث الدينية وكان ذلك في إطار اهتمامهم بالناحية الدينية والعقائدية بشكل عام ليظهروا أمام المصريين والعالم الإسلامي بمظهر حماة الدين [2] فبدأنا نلاحظ سمة تغييرات تطرأ علي الأسواق واستعدادات معينة تقام وكلها تسير لهدف واحد وهو التيسير على الركب وتوفير ما يلزمه من مؤن.

مظاهر اهتمام المماليك بالأسواق.

ظهر ذلك من خلال قيام السلطان بنفسه بتفقد أحوال السوق وأحوال التجار قبيل وصول الركب والمرور على منشآته وعادة ما يصاحب ذلك نوع من التيسير على الرعايا حيث يقوم السلطان بتفريق الأموال على العاملين في تلك المنشآت وتفريق الأموال على المحتاجين ونثر الأموال بالأسواق [3] وكان كل من (العرفاء – ونظار الأسواق – والمحتسب) هم ممثلي الدولة وعين السلطان على تنفيذ أوامره بالأسواق ومراقبتها وخاصة ما يتعلق بالموازيين والمكاييل وضبتها حتى لا يواجه الركب والمصاحبين له بأي متاعب أثناء إقامتهم بمصر [4]

كما كان استحداث "المحمل" [5] في العصر المملوكي والاهتمام به وبخروجه في أبهى صورة ليعكس السيطرة الدينية والسياسية لدولة المماليك على بلاد الحجاز، أثره على رواج النشاط التجاري في الأسواق خاصة أسواق بيع الأقمشة الحريرية [6]والحلي وأسواق الشموع والقناديل حيث يزود بها سلاطين المماليك "المحمل" [7] وقد حرص سلاطين المماليك على حد قول المقريزي المعاصر للأحداث على تزويد الركبان بالطعام والشراب والكساء والدواء كسبيل لغير القادرين المصاحبين للركب [8] كما أن شراء كميات كبيرة من الدقيق والأطعمة ليقوم الخبازين والطباخين بمهامهم أثناء رحلة الحج من الأمور التي أنعشت الأسواق في مصر مع قدوم وخروج الركب منها [9] وليس أدل على الرخاء الاقتصادي الذي كان يصاحب قدوم الركب وخروجه من مصر من الأموال التي كانت تنثر عليه استقبالا وتوديعا له من قبل التجار والأهالي[10] لدرجة أن ذلك ارتبط عندهم بأن كل ما ينثرونه من أموال سوف يعود عليهم ربحا ببركة وجود الركب [11]

ومن مظاهر اهتمام السلطة الحاكمة بالأسواق إلغاء العديد من الضرائب المفروضة على الأسواق [12] ففي سنة 710هـ/ 1311 م ألغى السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعض الضرائب التي كانت مفروضة على الأسواق مثل ضريبة نصف

السمسرة التي كان أحد ولاة القاهرة قد ابتدعها [13] كما ألغيت بعض الضرائب التي كانت تأخذ من عرفاء الأسواق [14]

كما عمل المماليك على الاهتمام بنظافة الأسواق، فقد ألزم السلاطين الباعة في كل الأسواق بتنظيف الشوارع أمام محالهم ورشها بالماء بل ويعاقب كل من يخالف ذلك ويلزمهم بتعليق قناديل على محالهم للإنارة طوال الليل، كذلك كان يتعين على أصحاب الحوانيت الواقعة في طريق دوران المحمل أن يزينوا حوانيتهم قبل ذلك بثلاثة أيام[15]

كذلك كان الاهتمام بتسعير السلع منعا لاستغلال التجار، ولا شك أن حركة البيع والشراء كانت تحكمها قوانين العرض والطلب وقد عرض (الشيزري) [16] في كلامه عن دور المحتسب في التسعير ومقاومة الاحتكار إلي أنه لا يجوز للمحتسب تسعير البضائع علي أربابها ولا أن يلزمهم ببيعها بسعر معلوم [17] ومع ذلك نلاحظ أن السلطات المملوكية لجأت إلى تحديد الأسعار منعا لاستغلال التجار وشددت على ذلك بشكل خاص مع قرب قدوم الركب. ولا يمكن أن يعد ذلك تحديا للدين الإسلامي ، إذ أن جمهور العلماء اشترطوا " قيام الناس بالواجب " أي قدرتهم علي دفع أثمان السلع ولا يكون ذلك إلا عن طريق أن يحد الحاكم لأهل الأسواق حد لا يتجاوزونه في السعر [18] فكان يجتمع السلطان المملوكي أو من ينوب عنه بالتجار ويتفق معهم على سعر محدد لكل سلعة لا يتجاوزونه [19] وقد يتم تحديد أسعار السلع عن طريق اتفاق بين أبناء الطائفة الواحدة و عريفهم وبين المحتسب [20] ولا يمكن اعتبار السعر الذي يقرره أبناء الطائفة فيما بينهم وبين المحتسب بواسطة عريفهم نوعا من أنواع التسعير [21]بل هو أقرب إلي التسعيرة الودية التي تحاول الاقتراب من فكرة السعر العادل [22] وقد ذكر الكثير من المغاربة أن التجار في مصر كانوا يبيعون بأسعار محددة واعتبروها من الأشياء التي تميز الأسواق المصرية في تلك الفترة[23]

وقد تتدخل الحكومة المملوكية في تحديد الأسعار بالأسواق بشكل مباشر مثلما حدث في عهد الظاهر بيبرس والناصر قلاوون، ولم يقف بها الأمر عند ذلك بل كانت تعمل علي محاربة اختزان التجار السلع[24] حتى أصبح تسعير القمح وغيره من المواد الغذائية سياسة مرعية عند المماليك[25].

أهم الأسواق التي ترى رواجا في موسم الحج:

كان هناك أنماطا من الأسواق التي كانت تلاقي رواجا واضحا في موسم الحج والشهور المرتبطة به كشهر رجب حيث دوران المحمل الرجبي وشهر شعبان حيث دوران المحمل في دورته الثانية ومن تلك الأسواق سوق الحلاويين ومن اسمه يتضح أنه السوق المخصص لبيع الحلوى المصنوعة من السكر- حيث عرف التخصص في الأسواق في مصر المملوكية – وكان إقبال الناس كبيرا على الحلوى المصنوعة على شكل حيوانات و التي عرفت "بالعلا ليق " –حيث كانت تعلق على أبواب الحوانيت بخيوط- ويهديها الناس لأطفالهم احتفالا بتلك الأشهر والمناسبات [26]

أما الأسواق التي تخصصت في بيع الملابس ولوازمها فنذكر منها "سوق الخلعيين"[27] الذي كانت تباع فيه ملابس أهل الدولة وغيرها من الخلع والتشاريف والتي كانت تلقى رواجا خاصا في موسم الحج حيث يخلع السلطان المملوكي على أرباب الدولة والقضاة وأمير الحج ،الخلع والتشريفات[28] وكذلك سوق "الشرابشيين" [29] حيث تباع الخلع التي يلبسها السلطان للأمراء والوزراء والقضاة في تلك المناسبات[30]، كما اعتاد كبار التجار المغاربة على زيارة ذلك السوق لشراء ما به من مقتنيات فخمة وغالية الثمن يحرصون على اقتنائها والتزين بها عند العودة إلى بلادهم.[31]

وكذلك الأسواق التي تخصصت في بيع لوازم السفر مثل " سوق المرحلين " الذي كان سوقا ضخما لدرجة أنه لو أراد الشخص تجهيز مائة جمل في يوم لما شق

عليه ذلك لوجود ما يطلبه لكثرة ذلك عند التجار وكان هذا السوق أكثر ما يزدهر في أيام الحج [32]وبماثله في ذلك " سوق المحايريين" الذي كانت تباع فيه المحاير التي يسافر فيها إلى الحجاز وبيت المقدس[33] والدليل على أن هذه السوق موسم رواجها كان في فترة الحج ما ذكره المقريزي من أن تجار هذا السوق لا يكترثون بمعاملة زبائنهم لأنهم يعلمون أن تلك الزبائن لا تزورهم إلا مرة واحدة بالعام وقد تكون مرة واحدة بالعمر [34] كذلك كان سوق "اللجامين " الذي يبيع كل ما يختص بالدواب المسافرة من لجام وسروج و حدو [35] و سوق الشموع حيث تستخدم بشكل مطرد في الشوارع ليلا عند استقبال الركب وتوديعه[36] وتلك الأنواع من الأسواق كانت تنشط في موسم الحج لكثرة المترددين عليها من أفراد الركب أو المصريين خاصة من ينوي الخروج للحج[37]

ونستطيع أن نستنتج من خلال المعلومات التي أوردها ابن دقماق، والمقريزي عن أسواق مصر في تلك الفترة والتي بلغت أعدادا كبيرة (حيث أورد ابن دقماق والمقريزي حوالي خمسين سوقا في منطقة باب البحر، وباب اللوق فقط)[38] أنه يراعى في تصميمها أن تكون في أماكن فيها منافذ متعددة، حتى يسهل على روادها أن يدخلوا إليها ويخرجوا منها بسهولة، كذلك يمكن القول: إنه كان لهذه الأسواق مخازن خاصة بها.[39] كما شاركت هذه الأسواق بصورة مباشرة في تجارة العبور فاستقبلت السلع التجارية من مختلف البلاد المجاورة ثم أعادت تصديرها إلى بلاد أخرى ولعب ركب الحج المغربي دورا رئيسا في ذلك.

عمارة الأسواق في فترة قدوم الركب

الحمامات: من العمائر التي اهتمت السلطات المملوكية بإقامتها في الأسواق خاصة في فترات مرور الركب حيث يزداد الاحتياج إليها مع قطع المسافات الطويلة حتى

دخول مصر[40] وكانوا يوقفون عليها الأوقاف لعمارتها والقيام على نفقتها وترميمها وإصلاحها.[41]

المخابز: من العمائر التي كان يهتم ببنائها في الأسواق "المخابز" لتأمين حاجة الركب وعدم التضييق على أهالي البلاد بوجوده.[42]

الخانات:[43] كان بناء الخانات والعمل دوما على ترميمها وزيادة أعدادها ومرافقها لتوفير اكبر قدر من الراحة لركب الحج[44] ومن المعلوم أن الخانات كانت تزود بأماكن لمبيت الناس وكذلك الدواب (اصطبلات) [45] ومخازن للبضائع [46] والخانات التي تبنى داخل المدن نوعان إما تبنى عند مدخل المدينة أو تبنى في الأسواق[47] والثانية يكون الإقبال عليها أكبر نظرا لوقوعها في قلب السوق[48] وسهولة قيام روادها بالعمليات التجارية التي يريدونها[49]

ومن الخدمات التي كان يقدمها الخان :توفير خدمة النوم والراحة[50] لأعداد كبيرة من الناس، في ضوء الموقع الاستراتيجي للخان في وسط السوق فلا بد لحشود الزائرين والمسافرين من المرور عليه ،إعداد الخبز وتوزيعه وهذا ما يفهم من كلام مجير الدين الحنبلي "...وشرط فيه أشياء من فعل الخير من تفرقة الخبز على بابه...."[51]

لم يغفل المماليك الحاجات التعبدية والروحية لنزلاء الخان وروّاده، فبني لهذا الغرض مسجداً مناسباً وعيّن له إماماً يؤم الناس في الصلاة، ويعتني بشؤونه ليبقى عامراً مفتوحاً للمصلين وفي ذلك دلالة واضحة على شمولية مرافق الخان وتنوع خدماته وأنشطته.[52]

ألحق بالخان مطبخاً مناسباً، بالرغم من عدم وجود نص صريح ومباشر، لكن يمكن أن نقول ذلك مستندين إلى ما جاء في **الأنس الجليل** "....وشرط فيه أشياء من فعل الخير.... وإصلاح حال النازلين به وأكلهم وغير ذلك..." فتوفير الأكل، بحسب النص، يستدعي بالضرورة وجود مطبخ مؤهل لهذا الأمر[53] وكذلك إصلاح

النعال[54] وهي خدمة مهمة وخصوصاً لأولئك المشاة والزائرين والمرتحلين الذين جاؤوا من أصقاع بعيدة[55]، فاهترأت نعالهم وحلّ بها التلف من طول السفر[56] ومشكلات الطريق فلا شك أنها خدمة لا تقل أهمية عن توفير الماء والخبز والطعام.[57] ونظرا لأهمية تلك العمائر فقد درج سلاطين المماليك على قراءة المراسيم الخاصة بالعناية بها أو التوجيه إلى إقامة المزيد منها في قلعة الجبل[58]مركز الحكم وأمام قاضي القضاة وجماعة من الأعيان والشيوخ الذين كانوا بمثابة الشهود على قرارات إنشائها والأوقاف التي توقف عليها[59] فقد أدركت السلطة المملوكية ضرورة مثل تلك المنشآت بالنسبة للأسواق وبالتالي لحركة التجارات الداخلية والخارجية وأهميتها بالنسبة لركب الحج[60]، والدليل على ذلك إشارة المؤرخ "مجير الدين الحنبلي" إلى تبدل تلك الأوضاع في الفترات المتأخرة من حياة الدولة المملوكية وظهور حركات النزاع والانفصال بين الأمراء المماليك وما ترتب عليه من مصادرات للأوقاف التي كانت لتلك المنشآت[61] مما أدي إلى توقف نشاطها و ما لحق بذلك من كساد تجاري.[62]

المطابخ: انتشرت المطابخ في الأسواق وظهرت معها عادة المصريين في الأكل خارج المنزل[63] ،خاصة في المناسبات والأعياد والاحتفالات المختلفة والتي كانت تقدم أكلات مختلفة منها المصرية ومنها المغربية والشامية وغيرها وكانت تلك المطابخ من الأماكن التي تلاقي رواجا كبيرا مع قدوم ركب الحج [64]

الأسواق الطارئة:

وجد مع المصاحبين لركب الحج بعض الفئات التي تنزل مجاورة لأحد المساجد أو الزوايا والتكايا وتفترش الأرض وتعرض ما لديها من منتجات مغربية، يتبعهم بعض الباعة المتجولين والمتعيشين فتنشأ ما يعرف بالأسواق المؤقتة المرتبطة بفترة وجودهم في مصر[65]حيث يجلب أربابها معهم بعض السلع المغربية التي يبيعونها لأهل مصر ويبدأ

الناس في التوافد عليهم[66] وهنا يحقق لهم جزء من الأرباح التي توفر لهم بعض من نفقات الحج[67] وفي الوقت نفسه يزود السوق المحلية المصرية بأنواع جديدة من البضائع المغربية والتي يقبل عليها المصريون[68] ومما شجع على ذلك بناء المماليك للعديد من المدارس والزوايا و التكايا والتي أوقفوا عليها الأوقاف فكانت تقدم خدمات اجتماعية كبيرة لروادها[69] ومن الملاحظ أن تلك الأسواق كانت تقام في الأماكن التي يكثر بها السكان ليتحقق الهدف من إقامتها[70] وقد حفل حي باب البحر بالقاهرة بالعديد من هذه المنشآت في ذلك العصر التي قام بإنشائها المماليك، إلى جانب قيام الشيوخ بتشييد زوايا لهم للانقطاع للعبادة بداخلها، ومن هذه المنشآت زاوية الركراكي، وجامع أحمد الزاهد، وزاوية عبد الرحمن البكتمري، وكلها أماكن شهدت وجود تلك الأسواق المؤقتة للمغاربة بجوارها حتى أصبح حي باب البحر من أشهر الأحياء التجارية في فترة الحج. [71]

أثر الركب على نشاط العاملين في الأسواق:

الصرافين[72]: من أهم المهن التي ارتبطت بالتجارة داخل الأسواق. وقد أشارت إلي تلك الحرفة الوثائق المتعلقة ببعض الأسواق مثل سويقة الحمام ، وميدان الغلة[73]. والمعروف أن وجود الصراف داخل الأسواق يخدم التجار الأجانب القادمين كي يتيسر لهم استبدال العملات المختلفة بعملات مصر السائدة في تلك الفترة، ورواج تلك المهنة يدل على ما تمتعت به الأسواق في تلك الفترة من العام من رواج اقتصادي مع قدوم الركب [74]،كما أن كثرة ذكر أصحابها وفقاً للمعلومات التي توصلنا إليها[75] يعني أن هذه الأسواق ضمت الكثير من السلع التي تخدم طلبات الزائرين القادمين إلى مصر وأنها تستوعب ما لديهم من بضائع لطرحها بالسوق .

القباني: أشارت إلى هذه الحرفة الوثائق المتعلقة بسويقة "بني الوفا"، "وسوق السمك".[76] فإن وجود حرفة القباني داخل بعض الأسواق تلقي الضوء على ما كان

يتم من بيع السلع بها جملة واحدة إلى تجار التجزئة، وهو ما يوفر الربح الأكثر للتجار سواء أكانوا تجار جملة أو تجزئة فالفائدة محققة للجميع وللمهنة المرتبطة بها وهي القباني[77]

مروّجي البضائع: وهم عادة ما يلجأ إليهم التجار الأغراب ليقوموا بترويج البضائع نيابة عنهم لعدم علمهم بأحوال السوق وكانوا من الفئات التي راج عملها في موسم الحج. [78]

الدلاليين أو السماسرة: والذين يقومون بإرشاد الباعة والمشترون في نفس الوقت إلى ما يريدونه وبالمواصفات المطلوبة لقاء أجر معين عادة ما يكون نسبة من ثمن الصفقة[79] وهؤلاء قد زاد دخلهم بشكل كبير خاصة مع قدوم ركب الحج وزيادة عمليات البيع والشراء ، حتى أن السلطات المملوكية قد فرضت عليهم ضريبة لصالح السلطان كإجراء تواجه به السلطات المملوكية أزماتها الاقتصادية في الشطر الثاني من عصر سلاطين المماليك.[80]

الجماليين: وهم من يحملون البضائع على ظهور جمال هم عادة ما يملكونها وينقلون البضائع من وإلى الأسواق.[81]

الوكلاء: ومنهم الوكلاء التابعين للحكومة والذين يشترون البضائع لصالحها أو وكلاء الأشخاص الذين يقدمون على شراء السلع نيابة عن أشخاص آخرين مقابل مبالغ معينة يتم الاتفاق عليها وقد يكونوا تجاراً أو أفراد[82] وهؤلاء يزداد دورهم ونشاطهم وبالتالي أرباحهم خاصة مع قدوم الركب.

الصياحين: وهم من يقومون بالدعاية للسلعة ما عن طريق الوقوف بجانبه والمناداة عليه وإبراز ما بها من مميزات ومدى مناسبة سعرها للشاري.[83]وقد أورد "المخزومي"[84] أجور لبعض العاملين بالأسواق في غير موسم الحج والتي تتراوح بين دينار واحد وربع وسدس الدينار في اليوم، فالوزان بالقبان دينار، الصياحين الذين

ينادون على البضائع دينار، المقلبين الذين يقلبون البضائع دينار، الحمالين سدس دينار[85]، ونري مدى الزيادة في أرزاقهم والربح الذي يحصلونه في موسم الحج إذا علمنا أن الصياح قد يصل أجره من ثلاث دراهم إلى عشرة، والمقلب إلى دينارين أما الحمال فيصل إلى دينار ودينارين وأحيانا أربعة دنانير في اليوم.[86]

الجهبذ: عليه كتابة رسم استخراج المال، وقبضه، وكتابة الوصولات به[87] ثم يقوم بتسليم الإقرارات للتجار الأجانب بتسلمهم أموالهم[88] ، **الشاهد** من اختصاصاته التوقيع على كل شيء مما هو شاهد فيه، وأن يكتب الموافقة التعليقية[89] (وكان يوقع علي الإقرارات والإيصالات الخاصة بالتجار).[90]

العملات المستخدمة في الأسواق المصرية في تلك الفترة:

كانت الدنانير الذهبية والدراهم الفضية هي السائدة في الديار المصرية[91] والحقيقة أن ذلك كان في النصف الأول من عصر سلاطين المماليك حيث حرصت الدولة أن يقوم النظام النقدي على أساس الدينار الذهبي والدرهم الفضي الواضح والمعروف الوزن والتعامل بقيمته مما كان له أثره على استقرار الأسعار وتوافر النقد الموثوق به وتوافر البضائع ونشاط التبادلات المالية والتجارية التي تصاحب قدوم الركب[92] على عكس ما حدث أواخر عهد المماليك حيث حلت الفلوس النحاسية وخلطت بمواد أقل منها في القيمة وأصبح التعامل بها على أساس الوزن لا العدد مما أثر سلبا على الأسواق حيث ازدادت الأسعار وقلت حركة البيع والشراء وأغلقت العديد من الحوانيت والأسواق[93] حتى أطلق "المقريزي" على تلك الفترة "الفترة النحاسية "[94] كما عرف الكاغد[95] وعرف الدينار البندقي أو " الدوكات" [96] بالإضافة إلى العديد من العملات الأوربية مثل الدينار البيزنطي ونتيجة لاختلاف العملات الواردة إلى الأسواق المصرية في موسم الحج وجد الصيارفة.

أهم السلع الموجودة والمجلوبة في الأسواق

تنوعت السلع في الأسواق في مصر في فترة الحج ما بين السلع المحلية والتي تنوعت بين السلع الغذائية والمنسوجات وكل ما يخدم الحياة اليومية ويناسب المستويات الاجتماعية المختلفة للسكان، والسلع المجلوبة إلى مصر عن طريق التجار الأجانب سواء أكانوا أوربيين أو عرب من المناطق المجاورة إذ لعبت مصر في تلك الفترة دورا مهما في تجارة العبور من الشرق إلى الغرب فعمرت الأسواق بمختلف السلع والتي كان من أهمها الحرير الهندي والفارسي.(97)

كما شهدت الأسواق السلع المغربية التي تجلب مع الركب المغربي ومن أهمها الثياب المقصبة والطنافس والمصنوعات الخشبية والعاجية (98) ولاقت رواجا كبيرا بين المصريين فأسهمت بذاتها في ازدهار حركة البيع والشراء في الأسواق (99) كما وجدت السلع المشرقية من التوابل (الكارم) وتميزت بنقائها حيث كان يتم غربلتها في أسواق القاهرة بغرابيل خاصة لضمان جودتها(100) وخاصة الفلفل الأسود والأبيض وكذلك العطور وأقمشة الشرق والبز(101) وكذلك السلع الأوروبية التي تأتي إلى مصر عن طريق التجار الإيطاليين (جنوة وبيزا والبندقية) أو كما أطلق عليهم(التجار الفرنجة) والتي كان الجبن من أهمها و كذلك أقمشة الغرب(102) وكل تلك السلع كان أهل المغرب يقبلون على شرائها و يحملونها معهم إلى بلاد الحجاز وإلى بلادهم.(103)

النتائج

– مثل قدوم ركب الحج المغربي حدثا مهما له أثاره الاقتصادية والتي ظهرت بوضوح في الأسواق في العهد المملوكية حيث كانت أكثر الفترات التي شهدت انتظاما لمرور الركب.

– كانت الزيادة المضطردة في حركة البيع والشراء وحالة الحراك المستمرة داخل الأسواق من أهم ما يلاحظ في فترة قدوم الحج.

– ظهر اهتمام المماليك بالأسواق في فترة قدوم الركب في الاهتمام بعمارة الأسواق من حيث الخانات والحمامات والمطابخ وغيرها من العمائر التي تخدم مرافقي الركب، وكذلك الحرص على ثبات الأسعار.

– شهدت بعض السلع رواجا كبيرا خلال وجود ركب الحج مثل الحرير والشموع والبذ والكارم والعلاليق ،فمنها ما كان يحمل في تجارات إلى خارج مصر ومنها ما يلقى رواجا لاستخدامه فرحا بهذه المناسبة.

– تميزت الأسواق المصرية بكثرتها وتنوعها واشتمالها على ما يحتاج إليه المصاحبين للركب والخارجين معه وهذا ما أشاد به من زار مصر مصاحبا لركب الحج.

– كان هناك بعض الأمور التي صاحبت قدوم الركب مثل الأسواق الطارئة وخروج المحمل بدورتيه في رجب وشعبان فكانا لهما أثارهما الاقتصادية على سكان البلاد والقادمين إليها .

– شهدت بعض المهن رواجا كبيرا في فترة وجود الركب مثل الصياحين ومروجي البضائع والحمالين و الو زانيين.

–عرفت الأسواق المصرية التخصص من حيث البضاعة المباعة مما يسر على أفراد الركب قضاء حوائجهم وكان سببا في انتعاشها اقتصاديا.

– كان قدوم الركب المغربي وتعدد العملات المستخدمة في الأسواق المصرية خاصة من الأشياء التي أدت إلى ازدهار بعض المهن مثل الصيارفة والجهابذة.

هوامش البحث:

([1]) ابن تغر بردي: النجوم الزاهرة، ج7 ، ص1

([2])محمد الجهيني: أحياء القاهرة القديمة وآثارها الإسلامية، حي باب البحر، القاهرة: دار نهضة الشرق، 2000، ط1، ص 142 .

([3]) المقريزي : الخطط ، ج3،ص498.

([4])المقريزي : السلوك ،ج1 ،ص92.

([5]) المحمل وهو أمر استحدثه السلطان الظاهر بيبرس حوالي سنة 657هـ / ليظهر قوة دولته وسيطرتها على بلاد الحجاز وإظهاره هو شخصيا كحامي للشريعة الاسلامية وكان هذا المحمل يحتوي على كسوة الكعبة التي يتم إرسالها من مصر وكانت عبارة عن حرير أصفر مذهب بنفس لون راية دولة المماليك وتحتوي على اسم السلطان بالإضافة إلى بعض الآيات القرآنية و يطاف بها في ذلك المحمل في شوارع القاهرة في موكب مهيب مرتين في العام في منتصف رجب حيث يعرف بالمحمل الرجبي وفي منتصف شوال وقد صار المحمل يرسل سنويا لأنه يرمز لنفوذ دولة المماليك. القلقشندى: صبح الأعشى ،ج2 ،ص412 ؛ المقريزي: الخطط، ج1،ص388 ؛ المقريزي: الذهب المسبوك، ص92 ،ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت 1400هـ، ص48.

([6]) قاسم عبده قاسم : الأسواق في العصر المملوكي ،ص23.

([7]) المقريزي : **السلوك**، ج2 ، ص 491 ، ص52 4.

([8]) المقريزي، السلوك، ج2 ،ص460 .

([9]) ابن الصيرفي(علي بن داود): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة، 1970

([10]) السيوطي: حسن المحاضرة، دار الموسوعات القاهرة، د ت، ج2، ص237.

([11]) القلقشندى: صبح الأعشى، ج4، ص365.

([12]) محمد محمود العنا قرة: الأحوال الاقتصادية في مصر والحجاز في العهد المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2010، ص56.

([13]) كانت ضريبة "نصف السمسرة " تؤخذ من كل من يبيع شيئا بما قيمته 2%من ثمن البيع وكان يؤخذ نصف الضريبة للسلطان والنصف الآخر للدلال.ابن تغر بردي: النجوم، ج9ص47.

([14]) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4،ص65.

([15]) القلقشندى: صبح الأعشى، ج4، ص87؛ المقريزي: الذهب المسبوك، ص16.

([16]) الشيزري(عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، دار الكتب العلمية،بيروت،2003، ص12.

([17]) ابن تيمية (تقي الدين ابو العباس احمد بن عبد الحليم):الحسبة في الإسلام، تحقيق صالح عثمان الفحام، الدار العثمانية، دار بن حزم، بيروت، 2004 ،ص28 .

([18]) ابن إياس: بدائع الزهو ،ج1 ص 255 وتراضي أهل السوق مع الإمام علي السعر جائز انظر: ابن تيمية :المصدر السابق، ص20 .

([19]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج،1 ص169 .

([20]) المقريزي : إغاثة الأمة ، ص17 ،19.

([21]) بدر عبد الرحمن :النشاط التجاري في مصر في العصر المملوكي دار الفكر للطبع، القاهرة، ص36 .

([22]) Lane pool . s: Social life in Egypt , London p.44

([23])راشد البارودي: حالة مصر الاقتصادية في العصرين الأيوبي والمملوكي، دار الثقافة الدينية، القاهرة، ص273 .

([24]) رجب عبد الحليم :المرجع السابق، ص260 .

([25]) محمد قنديل البقلي: صور من أدبنا الشعبي أو الفولكلور المصري، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1962، ص 148- 151.

([26]) المقريزي : السلوك ،ج1 ،ص92؛ الخطط ،ج2 ،،ص 23.

([27])ذكر المقريزي أن كلمة خلعي –وجمعها خلعيين – تعني تاجر الثياب الخليع أي الثياب المستعملة، ولكن يبدو مما ذكره

عن السوق أنه لم يكن كذلك .المقريزي، الخطط، ج ٢، ص46.

([28]) المقريزي : الخطط ،ج2،ص35؛ ماير : الملابس المملوكية ،ص62.

([29]) هو شيء يشبه التاج مثلث الشكل يأمر به السلطان لمماليكه ووزراءه كنوع من الخلع .ماير : الملابس المملوكية ،ص66.

([30])كان السلطان إذا أمر أحدًا من الأتراك ألبسه الشربوش وهو شيء يشبه التاج كأنه مثلث يجعل على الرأس من غير

عمامة .وقد بطل الشربوش في الدولة الجركسية .المقريزي، الخطط، ج ٢، ص98 .

([31]) قاسم عبده قاسم : الأسواق في الدولة المملوكية، مطبعة سعيد رأفت ، 1978 ، ص56.

([32])أيمن فؤاد السيد: التطور العمراني لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتى الآن، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1997، ط 1، ص 71- 72.

([33]) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ،ص16.

([34])ابن إياس: بدائع الزهور ،ج4 ،ص32.

([35]) المقريزي : الخطط ، ح2، ص145.

([36]) المقريزي : الخطط ، ج2 ، ص97،98،99؛ ابن المبرد، يوسف بن عبد الهادي : نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق، نشره حبيب زيات، مجلة المشرق، ١٩٣٩ م، ص ٢٢،٢٣ .

([37]) بن إياس: بدائع الزهور، ج٥ ،ص٩٥ .

([38])ابن دقماق: الأمصار لعقد واسطة الانتصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت1983 ،ص213 ؛ المقريزي : الخطط ، ج2، ص165 . العسقلاني (الحافظ بن حجر العسقلاني) : إنباء الغمر بأنباء العمر ،بيروت 1986، ص154.

([39]) بن قاضي شهبه (أبو بكر احمد بن محمد) : تاريخ ابن قاضي شهبه ،المعهد الفرنسي للدراسات، دمشق، ١٩٧٧م، ج١، ص٥٧٨؛ العيني(بدر الدين محمود) :عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق عبد الرزاق الطنطاوي، مطبعة علاء الكردي القاهرة، ١٩٨٥م، ص٢٥٢.

([40]) ابن تغر بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

([41]) مجير الدين الحنبلي: **الأنس الجليل**، ج2 ، ص 1.

([42]) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق ،ج2،ص88؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1957 ؛ ص445 ، ص491.

([43])الخان لفظة فارسية الأصل، أطلقت على المنازل التي يسكنها التجار، 64 وتعني كذلك مخزن البضائع أو الحانوت والمتجر أو الفندق 65 .كان الخان مكان ينزل فيه التجار والمسافرون طلبا للراحة والأمن ولقضاء الأعمال التجارية. وكانت نوعان نوع يبنى خارج المدن على الطرق التجارية ونوع يبني داخل المدن عند مدخل المدينة أوفي الأسواق المعجم الوسيط، بيروت :دار إحياء التراث العربي، ج1 ،ص263.

([44])ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2 ، مادة خان، ص 3 ؛ عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، بيروت، جروس برس 1988،ص243. .

([45]) جلال الدين السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا – بيروت، المكتبة العصرية، ج2 ، ص.76 .

([46])ابن شداد ,عز الدين محمد بن على بن إبراهيم , تاريخ الملك الظاهر , اعتناء أحمد حطيط , (مركز الطباعة الحديثة , بيروت , 1403هـ) ,274

([47])المقريزي : السلوك، ج – 1 ق2 ، ص. 521 .

([48]) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج2 ، ص8 ؛ المقريزي : السلوك، ج – 1 ق2 ، ص 521؛ ابن تغري بردي : النجوم ، ج7 ، ص 121 ،191 .

([49])ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت، دار الكتاب العربي، ج5، ص296،ج6،ص335.

([50]) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7 ، ص19 .

([51])مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج2 ، ص8 6 .

([52])المقريزي: السلوك، ج1 ،ق2 ,ص521 .

([53])مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج2 ، ص87.

([54])ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7 ، ص . 121 .

([55]) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7 ، ص19

([56])ابن منظور: لسان العرب، المجلد السادس، بيروت :دار صادر، 1992،(مادة سبل.)،ص645 .

([57])المقريزي: السلوك، ج1 ، ق2 ، ص50

([58])ابن بطوطة : تحفة النظار ،ص72،67.

([59])القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة :دار الكتب الخديوية، 1913 م، ج 13، ص350 .

([60])ابن بطوطة : المصر نفسه، ص78.

([61]) محمد زكريا توفيق: عمائر الظاهر بيبرس (الخلفيات والأبعاد)،حوليات القدس ،العدد12،2011، ص23.

([62]) الحنبلي :الأنس الجليل ، ص243.

([63]) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة، ص 36 ، و ص 43 ؛ كراتشوفسكي، ص422-423 .

([64])المقريزي : الخطط المقريزية، ،ج4 ، ص467

([65])ابن شداد (عز الدين محمد بن على بن إبراهيم) : تاريخ الملك الظاهر ، اعتناء أحمد حطيط ، (مركز الطباعة الحديثة , بيروت , 1403هـ) ،ص274.

([66])**ابن كثير: البداية والنهاية، ج 13 ، ص .**

([67])محمد الجهيني، أحياء القاهرة القديمة وآثارها الإسلامية: حي باب البحر، القاهرة: دار نهضة الشرق، 2000، ط1، ص1 14

([68]) المقريزي : الخطط ، ج2 ، ص96.

([69]) الجهني : المرجع نفسه، ص142.

([70]) ابن دقماق : الانتصار ، ج4 ، ص67.

([71]) الجهني : المرجع نفسه ، ص160.

([72]) **لغة: مشتقة من الصرف، وهو صرف الذهب والفضة في الميزان، أي فضل الدرهم على الدرهم، والدينار على الدينار، لأن كل واحد منهما يصرف عن قيمة صاحبه، ويقال بين الدرهمين صرف أي فضل لجودة فضة أحدهما، والصرف أيضا بيع الذهب بالفضة، ويقال صرفت الدراهم بالدنانير (كما في اللسان). واصطلاحا: وظيفة من وظائف كتاب الأموال في الدول الإسلامية، والصراف والصريف والصيرفي هو الذي كان يتولى قبض الأموال وصرفها ونقدها، والجمع صيارف وصيارفة، وقد يجمع شخص واحد مهمة الصيرفي والجابي. ابن منظور.: لسان العرب ، دار صادر، بيروت ط3، ج9،ص189. ،** حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، القاهرة 1939م،ص78.

([73]) والموجودان بالشارع الأعظم الممتد من الحسينية إلى مشهد السيدة نفيسة .ابن شداد : المصدر السابق ، ص108.

([74]) المقريزي : الخطط ، ج2،ص112.

([75])محمد الجهيني: أحياء القاهرة القديمة، ص101

([76]) بالشارع الأعظم. ابن شداد: المصدر السابق، ص110.

(77) الجهيني: المرجع نفسه ،ص102.

(78) ابن تغر بردي : النجوم الزاهرة ، ج7 ،ص234؛ الحميري(محمد بن عبد المنعم) :الروض المعطار في خبر
الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة بغداد، بيروت، ١٩٧٥ م، ص ١٨٣.

(79) ابن تغر بردي : النجوم ، ج9 ، ص48.

(80) ابن تغر بردي : المصدر السابق ، ج9 ،ص49.

(81) ابن جبير :المصدر السابق، ص 55 .

(82) Cahen, Cl, les marchandes etrangers, P.97.

(83)النابلسي :لمع القوانين المضيئة ،تحقيق كلود كاهن، دمشق (1961 ، ص45 .

(84) ابن الفرات (ناصر الدين محمد) : تاريخ الدول والملوك ،نشره قسطنطين زريق ،بيروت 1942، ج7 ،ص199؛ ابن تغر بردي : النجوم الزاهرة ،ج12 ،ص13.

(85) ابن تغر بردي : النجوم الزاهرة ، ج12 ،ص451.

(86) المقريزي :الخطط، ، ج2 ، ص426.

(87) **ابن مماتي:قوانين الدواوين، ص304** .

(88) ابن الفرات (ناصر الدين محمد) : تاريخ الدول والملوك ، نشر قسطنطين زريق ،بيروت 1942، ج7، ص199؛ ابن تغر بردي : النجوم الزاهرة ،ج12 ، ص130.

(89) .بيرو طافور: رحلة طافور في العالم القرن الخامس عشر ميلادي، ترجمة حسن حبشي ، ج ٤، ص ٤٠٤،٤٠٥ . ج ٥، ص ٩٤،دار المعارف القاهرة، 1986 م؛
and Population In Mamluks ، Shoshan, Boaz. Money, Prices
Egypt. University Microfilms
International. Ann Arbor, Michigan. 1984. p49

(90) Cahen :Douones et commerce, pp.249

(91) محمد محمود العنا قرة : الأحوال الاقتصادية في مصر والحجاز في العهد المملوكي ، ص66 .

(92) ابن تغر بردي : النجوم ، ج7 ، ص213.

([93]) المقريزي : السلوك ،ج4،ق2،ص545 .

([94]) المقريزي : السلوك: ج 3 ، ص120.

([95]) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ، ص254.

([96]) في عصر السلطان قلاوون اجتمع مجلس شيوخ البندقية وقرر ضرب عملة ذهبية أطلق عليها في اوروبا لفظ دوكات وفي الشرق باسم بندقي وانتشرت في مصر لثباتها ودقة وزنها في الوقت الذي تميزت فيه العملات المملوكية بعدم الدقة وعدم ثبات الوزن في كثير من الأحيان المقريزي : شذور العقود في ذكر النقود ، طبعة بولاق 1969، ص120.

([97])الفاسي : العقد الثمين ، جـ3 ص24-25 ؛ابن فهد : إتحاف الورى ، جـ3 ص614 ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، جـ3 ص94 .

([98]) ابن طولون(شمس الدين محمد): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، 1962م، ج1، ص225

([99]) ابن إياس: بدائع الزهور، ج1 ،ص369.

([100]) بنيامين التطيلي : رحلة بنيامين التطيلي ، ترجمة عذرا حداد ، بغداد 1954 ، ص65.

([101])Goitein: Ameditrranean society, vol , 1 , pp.267

([102])صبحي لبيب : سياسة مصر التجارية في عصر الأيوبيين والمماليك ، .ص76

([103])ابن صرى(محمد بن محمد) : الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليام برينر، بركلي، لوس أنجلوس، 1963م، ص173؛ ابن الشحنة(أبو الفضل محمد بن الشحنة) :الدرر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي، دمشق، 1984م، ص257 .